سيكولوجية الجميل والجليل في علاقتهما بجدلية الداخل والخارج عند عباس العقاد

ملخص :

والجميل والجليل ظاهرتان لهما مكانتهما لدى العقاد وأدبه، فالجميل ما يسمو بالنفس البشرية إلى مبتغاها الإنساني، وهذا الجمال غاية الحياة التي تثير كلّ شعور بالجميل وبالمقابل فيها الخوف من الموت الذي يثير كلّ شعور بالجليل.

وعليه فالإحساس بالجميل والجليل مرهون بالإنسان والحياة.

وهذا ما يجليه لنا هذا الموضوع في أدب عباس العقاد.

الدكتور: زين الدين مختاري
الأستاذ المحاضر بقسم اللغة العربية من كلية الآداب – جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان

ينطلق العقاد في مفهومه للجميل من رؤيته الخاصة وتجربته الشخصية ليمنحه بعدا سيكولوجيا في علاقته بأصناف اللذة وليبيّن في الوقت نفسه، أثر الغزيرة الجنسية في الشعور الجمالي بعامّة وفي تفضيل الجسم الشهيّ أو اللّذيذ بخاصّة؛ مفرقا في البداية بين الجميل واللذيذ. ذلك أنّ النفس الإنسانية تحمل ثورة كبيرةً من لذائد الأيام ورخاء الأوقات. ولكن ارتباط الجمال واللذة بالنفع المادي، يجعلها بمعزل عن قيم الجميل النفسية والأخلاقية [1].

ومن هنا كان اللذيذ كالممتع؛ ولكن هذه القيم لا ترقى إلى قيم الجميل الحقيقية ولا تعدّ، في تصور العقاد، من جمال النفس الإنسانية. وما اللذائذ، والمتع والمنافع إلاّ "تمرينات محبوبة للحوارس ينعم بها كل ذي حسّ من الحيوان كما ينعم بها كلّ ذي نفس من بني الإنسان"[2].

وعلى هذا الأساس، يرى العقاد أن الجميل هو كل ما يسمو بالنفس الإنسانية إلى مرتبة تترّهها عن المطالب النفعية والأشياء المادية. وهذه النظرة كانت نابعة من سلوكه في الحياة، وعزوفه عن الدنيا وزهده فيها في مرحلة من مراحل حياته، كان يرى فيها «كل متعة حقيرة زهيدة شوقا إلى ما بعدها وارتيابا في قيمتها، وأن تكون هي كل ما تزلفه الحياة لأبنائها ... والعجيب أنني كنت متنسطا عازفا عن الدنيا حين كانت عندي كلها مادة حيوانية»[3].

وعليه، فالجميل عند العقاد هو أن تكبح النفس جماح شهواتها ولذاتها، وتنتصر على القيود الشكّ لتخرج إلا برّ اليقين، وألاّ تتردّد في اختيار الكرامة ونبذ اللذّة، والفوز بالعمل الدؤوب

دون مقابل نفعيّ والجميل أيضا هو أن تطارد النفس شبح الخوف من الأقوياء، وتغالب شحّها وتتسلّح بالصبر على الضيّق [4].

وطبيعيّ أن يكون طلب النفس للجمال بهذه الصورة، صعب المنال، لأنه محفوف بالمخاطر والمشاق ومع ذلك يكفي أن يحصل الإنسان على ذلك النزر القليل من المكارم النفسية والأخلاقية، لتتعرف النفس إلى قدرتها واقتدارها، وتملك زمامها، فتعلم أنها "ملكت الثورة التي لا يقاس بها ملك المال، ولا ملك اللذة، ولا ملك الثناء.."[5] ، وهذا أجمل ما في الحياة. ونحسب أن العقاد أدرك هذه الثورة الجمالية في نفوس الشعراء والعباقرة والعظماء حين كتب سيرهم، كما أدركها أيضا في نفسه حين كتب سيرته الذاتية إنصافا لعبقريته الفردية.

ويفهم من هذا، أن الشعور الصحيح بالجمال الحقيقي غير الشعور باللذة أو المتعة. ومن ثم يبدو الفرق واضحا بين شعوريين متباينين إزاء الجسم الجميل والجسم اللذيذ، فالشعور الخالص لوجه الجمال ينبغي أن يكون خالصا لجوهر الجمال في الإدراك، وهو الحرية الموزونة كما أشرنا إلى ذلك [6].

أما الشعور الثاني المبني على شعور اللذة، فالغريزة الجنسية هي التي تحركه في رأي العقاد[7].

ومن هنا كان لابد أن يكون "الجسم الجميل غير الجسم اللذيذ، وغير الجسم الصحيح، وغير الجسم القوي، وغير الجسم النافع، لأن الجسم قد يكون نافعا، أو قويا صحيحا، أو لذيذا، وهو في كل ذلك غير جميل"[8].

وعلى الرغم من اهتمام العقاد بنشاط النفس في الإحساس بالواقع "السيكوجمالية"، إلى أنه لا يريد أن يناط كل شعور جمالي بالغريزة الجنسية. ويظهر هذا جليا من تفنيده لمزاعم بعض العلماء والأطباء الباحثين في التحليل النفسي والمسائل الجنسية، وعلى رأسهم "ماكس نوردو" الطبيب اليهودي الذي ذهب إلى أن "الجمال وليد الغريزة الجنسية وعنوان أهواء التناسل... وصورة الجمال الأول في نظرة الرجل هي المرأة"[9].

وينتهي العقاد في موضع آخر إلى نتيجة فاصلة مفادها أن الجمال غاية الحياة، وما الغريزة الجنسية إلا جزء منها تابع للرغبة في الجمال، ولكنها مع هذا وسيلة قوية لإدراك هذا الجمال والوصول إلى تلك الغاية[10]. وهذا في رأيه "الأصدق من القول أن الفنون الجميلة نزعة محولة من غايتها كما يزعم الباحثون في المسائل الجنسية من جماعة الأطباء والنفسانيين"[11] .

وفي تصورنا، أن هذه الانتقادات التي واجهه بها العقاد آراء ***"ماكس نوردو"*** في مسألة الغزيرة الجنسية، تنطبق أيضا على مباحث ***"فرويد"*** في نظرية الجنس والحياة الجنسية، ومباحث غيره ممن رغم أن هذه الغريزة "هي التوكيد الأكبر لإرادة الحياة"[12].

فـ***"فرويد"*** يعزو كل نمط سلوكي من أنماط الشعور الجمالي إلى الغريزة الجنسية، ويؤكد أهمية الغرائز بعامة ***"الليبيدو"*** بخاصة في تشكيل الحياة النفسية للإنسان[13].

ونراه يذهب إلى أبعد من هذا حين يقول :"يتراءى لي أنه لا جدال في أن فكرة "الجمال" تضرب بجذورها في الإثارة الجنسية، وأن الجميل لا يشير في الأصل إلا ما هو مثير جنسيا[14]".

وإذا كانت علاقة الجميل بأصناف اللذة شديدة، فإنها بالجليل أشد من الأبعاد السيكوجمالية. وتتجلى هذه الأبعاد من ماهية الجميل والجليل في علاقتهما بالداخل، (النفس أو الذات)، والخارج (الطبيعة أو الموضوع)، فضلا عن موقف النفس إزاءهما.

ومن المعروف أن هذه النفس مركبة بطبيعتها من ثنائية متناقضة هي حب الحياة التي تثير فيها كل شعور بالجميل، وخوف من الموت التي تثير فيها كل شعور بالجليل. وهذا يعني أن الإحساس بالجميل والجليل مرهون بهذه الثنائية لشدة صلته بها؛ فالجميل إذا، هو كل ما يبعث في النفس الشعور بالرغبة، والرجاء، والحياة. والجليل هو كل ما يثير فيها الشعور بالرهبة، والهلع، والإحساس باليأس والفناء [15].

ويبدو أن إحساس النفس بتلك المشاعر المتناقضة إزاء الجمال والجلال ناجم عن إحساسها بتناقضات الطبيعة؛"... فالربيع، والصباح، والنور، والصحة، والشباب والحركة، والمناظر الرائعة، والخضرة، والأبنية المزخرفة، كلها جميلة، لأنها تنعش الحواس وتذكرها بالحياة. والشتاء، و الليل، والظلمة، والمرض والهرم، والسكون، والقفار المخيفة، والأطلال، والمعابد وهياكل الدراسة...، والقوى الطبيعية الهائلة كلها جليلة لأنها تقبض حواس وتميل النفس إلى التضاؤل والضعة أمام رهبة الفناء وعظمة طبيعة وضخامتها"[16].

ويخلص العقاد من هذا إلى نتيجة تحدد ماهية الجميل والجليل وطبيعة الاستجابة النفسية نحوهما. فيرى أن "الجميل مظهر القدرة، والجليل القدرة والقوة، ونفس قابلة القدرة بالإعجاب، وقوة بالخشوع"[17].

وفي تصورنا، أن هذه المناظر الطبيعية بجمالها، وجلالها، لا يشترط أن تكون دائما مثيرة للجميل والجليل، وما ينسجم معهما من رغبة ورهبة من دون حدوث أي انقلاب لهذا الانسجام في النفس؛ لأن الأثر لا يكون في كل الحالات موجها من الخارج (الطبيعة) إلى الداخل (النفس).

فالجميل والجليل قد يستأثران بالنفس، فتكون الاستجابة نحوهما طبيعية في الحالة النفسية العادية، أي أن الجميل يتفق وشعور الرغبة والجليل وشعور الرهبة، ولكن الشعوريين قد ينعكسان في النفس إذا كان الأثر موجها من الداخل إلى الخارج، فتكون الاستجابة غير طبيعية في الحالة النفسية غير العادية؛ أي أن الجميل قد يناقض الشعور بالرغبة والجليل الشعور بالرهبة. وتتحول العلاقة التي حسبناها متناقضة إلى علاقة انسجام وتجاوب، ونمثلها بهذين الشكلين البيانيين :

1. في الحالة العادية للنفس أو الداخل :

(الموضوع + الطبيعة) = الخارج ← الداخل = (النفس + الذات)

أثر موجه من الخارج إلى

النتيجة : الجميل = الرغبة، الجليل = الرهبة

2. في الحالة غير العادية للنفس أو الداخل :

(النفس + الذات) = داخل ← الخارج = (الموضوع+ الطبيعة)

أثر موجه من الداخل إلى

النتيجة : الجميل # الرغبة ، والجليل # الرهبة.

فشعور النفس في لحظة من اللحظات بالغبن والاكتئاب، نتيجة ظروف قاسية، قد يشوه أمامها كل جمال ولو بلغ أوجه. في حين قد ترى في الجليل مشاركة شعورية لها في غبنها واكتئابها، فينقلب عندئذ الجلال إلى الجمال، بل إنّ هذه المشاركة لتصل أحيانا إلى درجة الحلول والذوبان بين نشاط الوعي الداخلي وموضوعات الطبيعة، فيتحوّل هنا الدّاخل إلى الخارج والخارج إلى داخل [18]، وتمتزج قيم الجميل بالجليل، ومشاعر الرّغبة بمشاعر الرّهبة.

ونرى أن الفهم النفسي السابق لماهية الجميل والجليل قد يبدو بسيطا، وهو فهم صحيح في الحالة الطبيعية، ولكن بعض الحالات الشاذة، قد تعكس مفهوم الجميل والجليل، وليس شرطا أن يكون السبب هو شعور غريب إزاءها.

فالفرد الذي تأصلت في نفسه نزعة تشاؤمية، قد تنعكس لديه صورتا الجميل والجليل، والفنان بوصفه إنسانا عصبيا، من منظور التحليل النفسي [19]، قد يرى في الجليل شيئا عابرا وفانيا، ويرى في الجليل شيئا جميلا عظيما، واستمرارا للحياة وتجددا لها.

ومهما يكون من أمر، فإن الجليل بأطرافه المتناقضة مع هلع وإعجاب، وخوف وإقبال، وموت وحياة ...الخ واقعة جماليّة وعنصر أساسيّ في الحياة، لا يمكن الشعور به إلا ممتزجا بالجميل. ومدار هذا الامتزاج على علاقة النفس بالطبيعة، أو الذات بالموضوع، أو الداخل بالخارج، وهي علاقة جديدة، "تشكل الموقف الرومانسي في مجمله لتفاعلها، وتداخلها وتشابكها، وانصهارها... فالذي نعرفه ليس هو الأشياء نفسها في وضعها الخارجي وفي صلاتها القسرية المجتلبة، وليس نسخا طبق الأصل عنها، إنما نعرفه عنها يتحقق عن طريق نشاط الوعي الداخلي بها، والأشياء بدون هذا الوعي عاطلة..."[20].

وقد أدرك العقاد تلك العلاقة المرسومة بين الداخل والخارج في مفهومه الجمالي[21]؛ لأن الجمال خارج عن خواطر الإنسان وحالته النفسية والذهنية شيء جامد لا قيمة له، بل إن الأشياء الخارجية خاضعة لنشاط نفسي وذهني. وهذا أيضا أثر من آثار الموقف الرومانسي الذي يعد الجمال حالة نفسية[22]، بدليل قول العقاد :"ما من شيء في هذه الدنيا يسر لذاته أو يحزن لذاته، وإنما تسر الأشياء أو تحزن بما تكسوها الخواطر من الهيئات، وتعيرها الأذهان من الصور"[23].

وتأكيدا على إدراك العقاد تلك العلاقة الجدلية بين الداخل والخارج، يلفت انتباهنا في البداية، إلى أن عالم القبح أو الشر، لا يمكن تصوره منفصلا عن عالم الجمال أو الخير، لأن "العالم عالمان : عالم الجمال وعالم القبح، وكل منهما ممتزج بأخيه منعدم فيه"[24].

ومن هنا، يبدو الشبه واضحا بين الجميل والجليل من جهة، وبين الجميل والقبيح من جهة أخرى من حيث الامتزاج والوظيفة النفسية والخضوع لعلاقة الداخل بالخارج. وقد يجوز وصف القبيح والتعبير عنه في الفن لا لبيانه والزرية به، لكن لإبراز قيمته الفنية والجمالية؛ فالشاعر، في تصور العقاد، "يعطينا جمالا حين يعطينا الجثة الميتة في قصيد جيد الوصف ومثالا للأداء ، ويفعل شيئا حسنا حين يتقن تمثيل الغدر والدناءة، والإثم، والرذائل الشائنة لمن يقترفها من الناس"[25]. فالقبيح، إذا، قد يكون بمعنى الجميل والحسن، وإن كنا نعلم سابقا أن الجثة الميتة منظر قبيح والغدر والإثم والرذائل أفعال دنيئة.

ونرى أن هذا التعبير الفني عن جمال القبح، قد يتيح للفنان حرية التعبير عن خواطر المحتجبة ومشاعره الخفية، ويبيح له، في الوقت نفسه، أن ينسج في هذا المفهوم الجمالي الإهاب الذي تريده طبيعته وحالته النفسية؛ على الرغم من أنه يبدو منافيا في الظاهر للقيم الجمالية والأخلاقية. ولكن لا ضير إذا كان الغرض -كما أشرنا- بيان حالة نفسية أو حقيقة جمالية.

ومثال ذلك، الشاعر الفرنسي *"بودلير"*(1821-1861) الذي يقدم لنا في ديوانه **"زهـور الشـر"** صورة رائعة عن جمال القبح والشر[26] تعكس، في الوقت نفسه، حالة رجـل مـريض شاذ الطباع، غريب الأطوار، عصبي المزاج ديدنه وصف القبح أينما وجـد، ولا غـرو فـي ذلك؛ فقد كان الشاعر "شديد الولع بالروائح الكريهة، خصوصا بالجيف، والأطعمة التي دب فيها الفساد، والأشياء العفنة... وكان مصابا بذلك النوع من المـرض العصبي الاضطراري الهدام... وكتب عن نفسه في هذا الشأن أنه كان يشعر بـلذة لا تضارعها لذة في القيام بهذه الأعمال الاضطرارية الهدامة"[27]. وقد ألحت على الشـاعر هـذه الحالـة حـتى توطن في نفسه الخالية من الخير، فثار رافعا لواء القبح والدمامة. ولم تكن هذه الثورة الخائبة في نظر العقاد، "إلا ضرب من ثورة الضمير على ظلم الشرور، ولا كان إمعانه في النظر إلى الدمامة إلى اشمئزاز معكوس يأخذ من نفسه الكليلة مأخذ الانتقام..."[28].

ومهمـا يكن من أمر، فلإن بين الجميل والجليل علاقة وثيقة يستدعي أحدهما حضـور الآخـر، ولكـنهما مع هذا يختلفان، في تصور العقاد من حيث قوة التأثير في الـنفس والحواس؛ فعنده "أن إدراك الجمال ينبغي له تهذيب في النفس، ودقة في الذوق، وسـلامة فـي الطـبع، وليس كذلك الجلال، فإنه لقوته الضاغطة على الحواس تضطر النفس إلى الشعور به قسرا مادامت على استعداد للشعور بالجلل"[29].

الهوامش :

(1)- ينظر العقاد عباس : دار الكتاب البناني، بيروت، ط1، 1982م، ص : 213-214.
(2) -العقاد عباس : ص : 213-214.
(3)- ينظر العقاد عباس ص : 226.
(4)- العقاد عباس ص : 215.
(5)- العقاد عباس ص : 215.
(6)- ينظر العقاد – هذه الشجرة-ص: 27، ومطالعات- ص : 209.
(7)- ينظر العقاد عباس – هذه الشجرة- ص : 37.
(8)- العقاد عباس -هذه الشجرة- ص : 37.
(9)- العقاد عباس -مراجعات- ص: 63-64 وينظر هذه الشجرة- ص : 29-30.
(10)-ينظر العقاد عباس -مراجعات- ص : 69-70.
(11)- العقاد عباس -مراجعات- ص 70.
(12)- فؤاد كمال- الفرد في فلسفة شوبنهور دار المعارف بمصر 1963م -ص : 92.
(13)- ينظر عبد الرحيم عدنان فرويد والطبيعة الإنسانية،دار الحقائق بيروت 1981م-ص: 19.
(14)- فرويد سيجو موند، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة بيروت ط2 1983م – ص: 33.
(15)- ينظر العقاد عباس -خلاصة اليومية والشذور، دار الكتاب العربي، بيروت 1970م ص : 24.
(16)(17)- العقاد عباس -خلاصة اليومية والشذور- ص : 24-25.
(18)- ينظر اليافي نعيم - الشعر العربي الحديث – ص : 43.
(19)- ينظر مانوني -مذهب فرويد- ص : 113.
(20)- اليافي نعيم -الشعر العربي الحديث- ص : 43
(21)- ينظر نوفل يوسف -رؤية النص الإبداعي بين الداخل والخارج، دار النهضة بيروت 1984م-ص: 61-62.
(22)- ينظر اليافي نعيم العربي الحديث – ص : 47.
(23)- العقاد عباس- مطالعات-ص :291، وينظر العقاد عباس -مقدمة عابر سبيل- مكتبة النهضة المصرية-القاهرة1937م – ص:4
(24)- شكري عبد الرحمن-ديوانه جمعه وحققه وقدم له، نيكولا يوسف،توزيع دار المعارف بالإسكندرية ط1 1960م-مقدمةج5-ص:436.
(25)- العقاد عباس -ساعات بين الكتب- ص : 322.
(26)- ينظر : Baudelaire, c.-les fleurs du mal Introd, A, Adanar Ed-. Garnier Frères, Paris 1961, P XXI-XXVV
(27)- عبده سمير – نفسيات المشاهير- دار النصر – دمشق -ط8، 1986-ص : 35.
(28)- العقاد عباس – ساعات بين الكتب – ص : 321.
(29)- العقاد عباس – خلاصة اليومية- ص : 98.